"أطفال وقضايا إنسانية كبرى" أطفال يكبرون عبر دراما المشروع

خلود أرناؤوط

خلود أرناؤوط (يمين).

في التعليم التقليدي الذي كنت أستخدمه، كان المنهاج يتوسط العلاقة بيني وبين أطفالي في الروضة، وهي علاقة عادية كأي علاقة بين مربية وطلابها. لكن ما اكتشفته من خلال التعليم بالدراما والمشروع، هو أن الوسيط بين المعلمة وطلابها هو الخيال الإنساني، لأن التعليم المقدم بهذه الطريقة يتمحور حولنا كأناس نفكر في قضايا تتعلق بحيواتنا ووجودنا.

في إطار هذا الفهم، أصبحت الدراما هي المنهجية التي أتبعها في تدريسي للأطفال بعدما سنحت لي الفرصة للالتحاق ببرنامج الطفولة الذي ينفذه مركز القطان للبحث والتطوير التربوي/ مؤسسة عبد المحسن القطان لأتعلمها منهم، وألتحق لاحقاً بـ«المدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي» التي ينظمها مركز القطان سنوياً في الأردن، حينها أدركت أن ما قدمه لنا مركز القطان هو أكثر من تعلم، هو الطاقة اللازمة للفعل والعمل معاً، ولذلك كلما خفتت هذه الطاقة أو احتجنا لها، كنا نلجأ للمركز ونلتقي بالزملاء والباحثين فيه، لنشكل سوياً جماعة داعمة ومؤمنة بما نفعل، وقادرة على خلق التغيير الذي ينعكس على تطورنا المهني والذاتي بشكل كبير.

لم يكن برنامج الطفولة يحتوي على ممارسات ومنهجيات تعلمناها فحسب، بل هو أيضاً ثقة تمنح لنا من قبل القائمين على البرنامج، نستقيها من المساندة والتواصل والمتابعة التي يقدمونها لنا بشكل مستمر، فهناك من يتابع، ومعلمات يتشاركن التخطيط، وأفكار تنمو بشكل تدريجي، وعمل ضمن فريق، هو عمل قوي وغني وتشاركي بكل حيثياته.

العمل من خلال الدراما بالمشروع جعلني أفكر بالكثير من القضايا الحياتية المهمة، وطريقة تقديمها لأطفالي داخل الروضة. عملت على الكثير من الموضوعات، ولكن اليوم سأعرض عليكم إحدى تلك الموضوعات، التي بدأت من خلال سؤال طرحته على نفسي، وهو:

هل يمكن لأطفال بعمر الخامسة أن يتعلموا عن قضايا كبرى كمفاهيم الأرض، والوطن، والهجرة، والطرد ... ويناقشوها؟

وحتى أجد إجابة عن سؤالي المطروح، وحتى لا أبقى أسيرة جواب محدد -أي: نعم يستطيعون، أو لا يستطيعون- قررت الذهاب إلى أبعد من فكرة طرح السؤال بصيغة (هل)، بل إلى: كيف يمكن لأطفال بهذا العمر أن يكونوا كباراً؟ وبما أن الزراعة هي إحدى الوحدات التي يتم العمل عليها في منهاج الروضة، ويتم التطرق إليها في بداية فصل الخريف، حيث تزامنت مع بداية مشروع المجاورة، قررت أن أقدمها لأطفالي عبر القصة المقترحة التي صممتها مع زميلاتي، والتي كانت بعنوان «شجرة البلوط».

«شجرة البلوط» .. قصة مشروع

بدأت فكرة المخطط من قصة واقعية، حيث تمت إعادة صياغتها بشكل يتناسب مع أعمار الأطفال من جهة، وموضوع التعلم من جهة أخرى. فالقصص تشكل عالم الأطفال واهتمامهم، فكان سياقها كالتالي:

> «أم توفي زوجها ولديها عدد من الأطفال، امتلكت بيتاً على أرض كبيرة تتوسطها شجرة بلوط كبيرة، كانت معتادة هي وزوجها على زراعتها وإعالة أبنائها منها، إلى أن أعياها المرض، ولم تعد تستطيع القيام بذلك، وأبناؤها لا يزالون صغاراً، وتحيط بأرضها أراض أخرى مملؤة بمزروعات مختلفة».

تخيل الأطفال أرض الحكاية، وجسدوها عبر الرسم على ورق كبير، واختاروا مزروعات للحدائق المجاورة، وحددوا طرق ريها والمحافظة عليها، ونوعوا بين مزروعات بعلية، وأخرى موسمية، رسموا شجرة البلوط في وسط أرض الأم، وبنوا علاقة مع الشجرة عبر جلوسهم تحتها، ووشوشتها بأسرارهم، والتحدث إلى الحيوانات التي تعيش فيها كالعصفور والسنجاب والأرنب والبومة، رووا قصصاً من مخيلتهم عن هذه الحيوانات وعلاقتهم بالشجرة، واعتنوا بالشجرة والحيوانات.

يتعرف الأطفال على المشكلة التي تواجهها الأم، فيقررون مساعدتها في إعادة زراعة الأرض والعناية بمزروعاتها، بناء على الخبرة التي تشكلت لديهم في هذا المجال، وبينما كانوا يستعدون لمقابلتها وتقديم عرضهم هذا لها، يصادفون رجلاً يدور حول الشجرة، ويحمل بيده أداة قياس، يقيس من خلالها قطر الشجرة ومساحة الأرض، ويتفقد حال البيت، يجتمعون ويناقشون الأمر وكأنهم كبار، ويطرحون قضايا كبيرة، ويبنون علاقات، يتوصلون إلى استنتاجات، فيقررون مقابلة الأم ومحاولة إقناعها بعدم بيع الأرض، وبأنهم جاهزون لمساعدتها.

أثناء مقابلة الأم يوضحون أهمية الأرض لها ولأبنائها، وأهمية البيت وكيفية المحافظة عليه، وتطرقوا إلى موضوع أكبر من أن يتحدث فيه أطفال بأعمارهم؛ وهو موضوع الهجرة، حيث بينوا أن من تبعات قطع الشجرة التي يعيش في كنفها مجموعة من الحيوانات، هو اضطرارهم لترك المكان كله، والسفر إلى مكان بعيد، فمن يبقى لن يجد طعاماً ليأكله، والقوي من الحيوانات سيأكل الضعيف ليضمن بقاءه على قيد الحياة.

وإن الشجرة، على الرغم من علاقتهم بها كمكان للعبهم ودفن أسرارهم، فإن فهمهم لأهميتها بالنسبة للحيوانات كان محل تركيز لديهم بشكل كبير، وأبرزوه عبر حوارهم وحديثهم المباشر للحيوانات لإقناعهم بالبقاء، وأن الأمور ستحل وسيساعدون الأم على ذلك. أطفال يتحملون المسؤولية ويصنعون القرار بأنفسهم ولهم، هذا ما يمكن للدراما أن تحققه.

أحد الأطفال يفشي سراً لشجرة البلوط ضمن مشروع المجاورة الخاص بمربيات الطفولة المبكرة.

البنية التخطيطية للمشروع

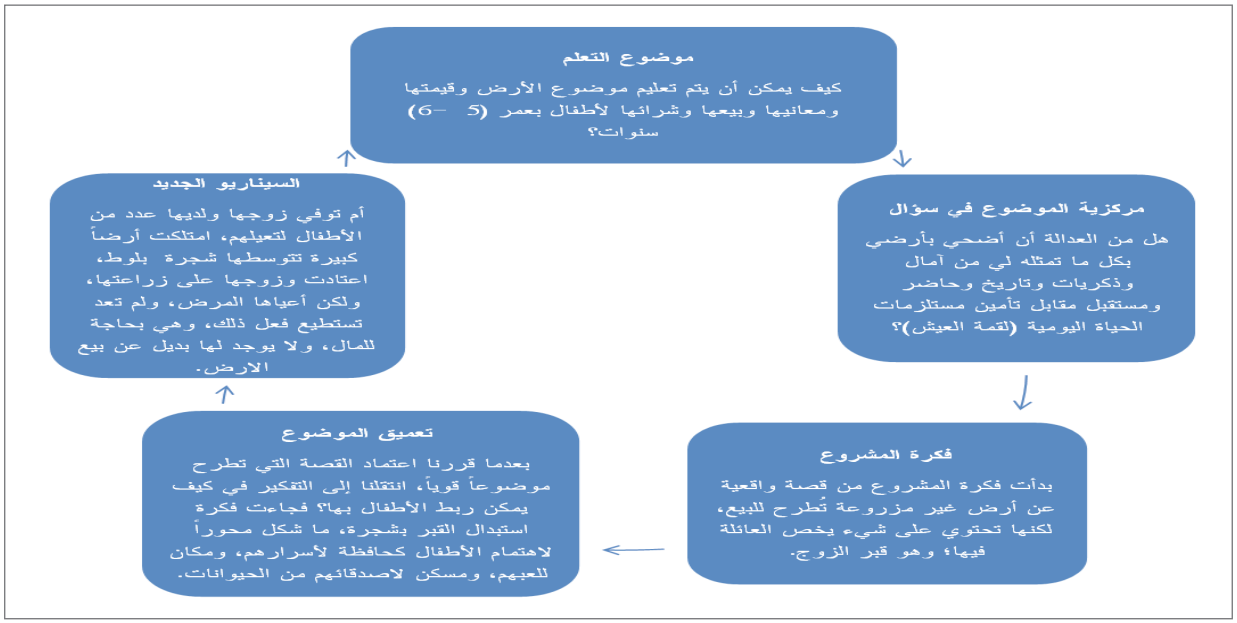

بناء صلة اهتمام الأطفال في الروضة مع المشروع

حتى يصل الأطفال لدرجة الهوس والانشغال بموضوع المشروع الذي يعملون فيه، ويحققون من خلاله أعلى درجات التعلم المعرفي والقيمي، علينا –نحن كمربيات– أن نجد زاوية الارتباط بين الموضوع واهتمامات الأطفال في هذه المرحلة العمرية. ولنحقق ذلك، ارتكزنا على موضوع شجرة البلوط، حيث كانت تمثل الآتي بالنسبة لهم:

معضلات وقضايا كبرى

طرحت الدراما الكثير من المواضيع والقضايا الكبرى التي لم أتطرق إليها بالتخطيط ظناً مني أن الأطفال لن يستطيعوا التوصل لها، وكذلك كشفت لي الكثير عن الخلفيات الاجتماعية التي يحملها أطفالي من بيئاتهم المختلفة، والتي لم تكن لتظهر لولا انخراطهم في موضوع إنساني يحمل في طياته العديد من القيم والمشكلات التي تواجهنا في الحياة، والتي عبر عنها الأطفال بلغتهم الخاصة، عبر حواراتهم المتبادلة، وقراراتهم التي احتاجوا إلى صنعها بخصوص بيع الأرض أو لا، والبديل عن ذلك وتبعاته من وجهة نظرهم التي قاربت إلى حد كبير تفكير البالغين، والتي أذكر منها التالي:

مفهوما البيع والشراء عبر التفاوض

* إذا بترضى تعطيني بيتك بعطيك بيتي.
* إذا عند أرض بترضى تبيعني إياها؟

* إنت بترضى تبيع إيدك؟ بترضى تبيع قلبك؟
*إذا بتجيب مصاري من البنك بنشتري لك أرض ثانية .

مفهوم صراع البقاء

* وجدنا الأرنب ميتاً في خيمة الدب.
* الأسد لما يجوع رح ياكل الأرانب.

* الحيوان القوي رح ياكل الضعيف، وبالاخر رح يبقى عنا بس القوي.

مفهوما الهجرة والسفر

* شفت الأرنب حامل معه شنطته مسافر.

* الحيوانات إللي ما رح تلاقي أكل أو بيت لها رح تسافر لبلد ثانية.

مفهوما البيع والشراء عبر التفاوض

* إذا بترضى تعطيني بيتك بعطيك بيتي.
* إذا عند أرض بترضى تبيعني إياها؟

* إنت بترضى تبيع إيدك؟ بترضى تبيع قلبك؟
*إذا بتجيب مصاري من البنك بنشتري لك أرض ثانية .

مفهوم صراع البقاء

* وجدنا الأرنب ميتاً في خيمة الدب.
* الأسد لما يجوع رح ياكل الأرانب.

* الحيوان القوي رح ياكل الضعيف، وبالاخر رح يبقى عنا بس القوي.

مفهوما الهجرة والسفر

* شفت الأرنب حامل معه شنطته مسافر.

* الحيوانات إللي ما رح تلاقي أكل أو بيت لها رح تسافر لبلد ثانية.

مفهوما الضياع والمرض

* راحت علينا الأرض.
في حيوانات ضايعة مش مبينة.

* ما رح تلاقي الحيوانات أكل ورح تمرض.
* ممكن نلاقي أكل اليوم، بس بكرة وبعده لأ.

مفهوم الغريب

* بدنا نضربه، نطخه، نشقح راسه، نزحلقه.

* ما بنفع نعمل هيك، جدي بقول: "الشيطان في السكين".

مفهوم الاعتصام

* الحيوانات كلها رافض تاكل الأكل.
* شو فايدة ناكل اليوم ونجوع بكرة؟

* الحيوانات ما بترد علينا، ولا بتحكي ولا كلمة، بس ساكتة وبتطلع.

حلول إبداعية

لم تعمل الدراما فقط على الإجابة عن التساؤل الذي طرحته في البداية، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد أظهرت إبداعات الأطفال في طرح الكثير من الحلول والأفكار والتعبير عنها؛ إما بالرسم، وإما الحوار، وإما بالمشاهد التي صمموها معاً. منهجية تَعَلُّم تدفع الأطفال ليكونوا أكثر فخراً وثقة بما يفعلون، فهناك طفل بعد الانتهاء من رسم الشجرة وكل ما وجد في أرض الحكاية، يقوم بنزع إشارته التي يحملها على صدره وعليها اسمه، ليعلقها على الرسمة، ويتبعه في ذلك زملاؤه وكأنهم يقولون إنها لنا، هذه حكايتنا. أطفال آخرون يبدون قلقاً عالاً بخصوص الحيوانات، ويتشاركون وآخرين الحوار ويصرون على عدم بيع الأرض، وإنهم سيقومون بمساعدة الأم وأطفالها على زراعة الأرض والعناية بالمزروعات لتكون وسيلة رزق تقتات العائلة منها، ولا تحتاج بالتالي لبيع الأرض، أو التخلي عن تاريخها وإرثها، وتبقى كذلك مكاناً يضمن للحيوانات حياة آمنة.

«تعلمت الكثير عن الأطفال»

لم أكن أعلم شيئاً عن الدراما ولا عن تأثيرها الكبير على الأطفال، حتى أُتيحت لي الفرصة لأشارك في مشروع المجاورة مع زميلتي خلود أرناؤوط في دراما "شجرة البلوط". تعلمت الكثير من لقاءاتنا المشتركة بفريق الباحثين والمركزين في مركز القطان، حيث تُبنى المشاريع من فكرة صغيرة في جو ملؤه الثقة، وعبر التشارك بالأفكار لتنمو وتصبح مشروعاً كبيراً، إلى خوض الرحلة مع الأطفال داخل غرفة الصف والتأمل المشترك بيني وبين زميلاتي.

أصبحت أجد نفسي أشبه بكاميرا تلتقط كل ما يدور حولها من صور للأطفال، وتسجل أفعالهم وحواراتهم، وما أن أعود لجلسة التأمل والتخطيط حتى أسترجع كل ما خزنته بذاكرتي كفيلم بجميع تفاصيله، حينها تتكشف لي صور جديدة للأطفال لم أكن أتوقعها أو أدركها حينها، ما جعلني أفهم طلابي أكثر، وأشعر بقرب أكبر اتجاههم، فبدأت أُعيد التفكير في دوري كمعلمة، وفي المعتقدات القديمة التي كنت أحملها للأطفال وتعليمهم.

فالأطفال إذا أُعطيت لهم الفرصة، ووفرت لهم البيئة المناسبة، يمكنهم أن يكونوا كباراً في نقاشاتهم وطرحهم للعديد من الحلول. فهم يمتلكون من القدرة على الإبداع عبر الخيال ما لا يمتلكه الكبار، لديهم دقة ملاحظة عالية جداً، وجلد على المتابعة وعدم الملل في حال استحوذ المشروع على اهتمامهم.

آيات الحرباوي

روضة العيزرية النموذجية – العيزرية

طفلة تفشي سراً لشجرة البلوط ضمن مشروع المجاورة الخاص بمربيات الطفولة المبكرة.